

سميرة عزام المناضلة

بقلم هفتي الحوت

في أواخر الشهر الماضي ، اقام اتحاد كتساب فلسطين مهرجانا تأبينيا لفقيده الادب سميرة عزام ، في قاعة المحاضرات الكبرى بالجامعة العربية ببيروت . و « الاداب » التي تربطها بالفقيده الكبيرة علاقات المشاركة والصدقة ، سعيدة بأن تنشر في هذه الصفحات كلمات التكريم التي أقيمت في ذلك المهرجان .

ليته كان بمقدور الصمت المتألم او خفقة القلب الحزين ان يعفاني من الكلام في هذه المناسبة الجليلة ، لانقل بصدق وأمانة ، وبلا حدود او قيود ، كل ما أعرف عن سميرة عزام . وكل ما اظنه قبيحا ، وكل ما اكنه لها من محبة وتقدير واجلال .

فالحديث عن الراحلة العزيزة ، كالحديث معها ، لا مكان فيه للغو او ثرثرة ، ولا زخرف فيه ولا زركشة . انه أشبه بالصلاة ، بل هو الصلاة كما يجب ان تكون الصلاة ، يتمجد فيها الحق والخير بالكلمة البسيطة والحرف المتواضع .

ما هم سميرة ، في حياتها كما في قصصها ، ان نتحت الجملة المعقدة او ان تنقب عن الكلمة الرنانة ، وهي القادرة على ذلك كله بفضل موهبة فذة مبدعة ، وثقافة عميقة استوعبت كل ما يحتاج اليه الاديب الاصيل . انما هو الهدف والمعنى ، الفكرة والعبرة ، الرأي والرؤية ، هذه هي همومها التي قضت حياتها بحثا ودفاعا عنها .

وليس من قبيل المصادفة المحضة ان تكون حياة راحلتنا العزيزة قصيرة كقصصها . لانها لم تكن رحمها الله من المؤمنات بالفن من اجل الفن ، تماما كما انها رفضت الحياة من اجل العيش ، والعيش فقط . لذلك كانت كلماتها المكتوبة في قصصها ، او المذاعة في احاديثها وبرامجها ، تنبض بالحياة والحركة وكانها بشر من طين تلتحفها روح متمردة من نار ، ترفض الضيم وتأبى الظلم والظلام . كلماتها تسير على أرجل ، بل تطير بأجنحة ، تسارع نحو هدفها دون خوف أو تردد ، وهي في كل غاراتها اما ان تنتصر ، فتنتصر معها الفكرة ، واما ان تقهر وتفتال ، لتنتصر الحافز الذي تتركه في نفس القارئ او المستمع .

والذين عرفوا سميرة الادبية ، ولم يعرفوا سميرة الانسانية وقوموا في خطأ كبير حينما حكموا على انتاجها بالنشأف العاطفي .

وما اكثر ما قرأت مثل هذا النقد عن سميرة ، وكنت أهز رأسي أسفا والما .

أما هي ، رحمها الله ، فما كانت لتحزن او تتأثر ، لان ما يقال لا يهمها ، بل لانها كانت أعرف بنفسها من غيرها ، ولانها أبت أن تجعل من عواطفها كامرأة سبيلا

للرواج والدعاية والانتشار . وان صممت سميرة عن هذه التهمة في حياتها ، فانسي في حل ، وقد غابت عنا ، أن أقول الحقيقة واكشفها .

فمن بين من عرفت ومن قرأت من ادبياتنا ، لا أتجاوز الواقع ولا أعالي ان اعترفت بأن سميرة من بين أولاء جميعا كانت من أرقهن عاطفة وأشدهن حساسية . بل ان في حياتها الخاصة وقفات عاطفية وانسانية لو ارادت تسجيلها لكانت في انتاجها الادبي لمعات برق خاطفة تأخذ بالالباب قبل ان تخطف الابصار .

ولكنها - رحمها الله - كانت ترى في طرح الخصوصيات ، ابتذالا لا يجوز وتجارة حرام . هذا بالاضافة الى ان معاناة الانسان في شخصها ، لا معاناة الشخص في انسانها ، هو ما كان يهمها ويشدها لمحراب الكلمة المقدسة . والعاطفة العامة ، لا العاطفة الخاصة ، هي التي كانت تحرق شموع قلبها الكبير .

ولم تكن سميرة في هذا كله ، مداجية او مخادعة ، بل كانت أصيلة صادقة ، تحيا حياتها بين سطورها وخارجها بلا زيف ولا رتوش ، ودون ضجيج او صراخ . وكانت في الوقت ذاته ترضى لغيرها ان يحيا حياته التي يريد .

الجد عندها بدون تزم ، والالتزام لديها لا يفقد العين قدرتها على الرؤية ولا يشل قدرة العقل عن التفكير .

ولعها تعذبت في مشوارها القصير الذي اختارت دربه الوعر .

ومن المؤكد انها لم ترتح ، وان اراحت الكثيرين . ولعل القلب الكبير كل بعد طول صبر ، فاستسام للعد ، في فترة تساوى فيها الوجود والعدم .

لم تستطع ، وهي المكابرة الصبورة . ان تحيا ليوم اطفئت في شموسه كل ملامح الامل والرجاء . وليتها صمدت معنا ، فظلمات حزيران بدأت تنقشع ، وفجر ايام نضال مقبلة يلوح في الافق . وسميرة كانت تحب النضال وتحيا بمآسيه وتضحياته .

واني اسمح لنفسي اليوم ، ان اكشف سرا أتمنتني الراحلة العزيزة على عدم البوح به ، وكتمته في صدري سنوات طويلا .

فلقد كانت رحمها الله ، عضوا قياديا عاملا في تنظيم عربي فلسطيني مناضل . واني أعرف من بين الحضور في هذا الحفل الكريم من تفقوا على يديها ، ومن قاموا بمهام قاسية بأوامر صدرت عنها ، وهي لم تتخل عن رفاقها قبل ان تترك لهم وصية المناضل الذي لا يلين . وصية لا تعتمد اللفظة المختارة او الجملة المنتقاة . . . وصية اعتمدت الازمة الاخيرة عقدة تبحث عن حل . . . عن طريق . . . وفيها تتساءل سميرة ، وانا اقتطف ههنا جزءا من وصيتها الغالية . تقول سميرة ، وكان ذلك اخر ما قالت لرفاقها :

« اذا كان الفرد العربي كانسان يجد نفسه مسوقا الى اعادة النظر في مقومات وجوده فما أحرانا كتنظيم يرفع شعارا نضاليا ثقيلنا ان نقف طويلا على ضوء هذه الظروف ، التي ألت بالامة العربية امام تحديات هائلة لتتساءل أين نحن من هذا كله . وماذا كانت محصلة عملنا طوال سنوات ، وما هو المعطف الذي يجب ان نأخذه في المستقبل القريب والبعيد ، وتحت أية صيغة فكرية او نضالية يجب ان نعمل .

أسئلة شتى تدوم في رؤوسنا وتعصف بها دون ان ندعي اننا مستطيعون الان ان نتبين مواطني أقدامنا بثقة ، وذلك ان القضية بمجملها تحتاز طرفا عسيرا يجد الشعب العربي نفسه مسوقا الى البحث عن منطلقات جديدة يصفى بها اثار العدوان اولا ويستأنف بعده عملية تحرير الارض المفتصبة » .

وتستطرد سميرة بتواضع الثوري الاصيل فتقول: « انني هنا أفكر بصوت عال وعليه أجد من العسير ان أرتب أفكارى بمنهجية او سياق يعطيها صفة البيان او التقرير ، وأستميح اخواني عذرا لو أنا قلت بأنني لا أختبئ وراء لف او دوران أدبيين ، ولكنني بكل تواضع أعترف بأن تجربتي ليست من النضج او الكفاية بحيث

تكون نقدا ذاتيا موضوعيا لتنظيمنا او للمسيرة الثورية العربية ككل . أخرج منه بشيء من المنهج فيما بعد . ابدا ، هي ملاحظات قد تفتقر الى الترتيب وقد تقصر عن بلوغ الشمول . »

وبعد ان تعدد سميرة بقسوة ، اعترفت هي بها ، مواطن الضعف في نضالنا السياسي تختتم وصيتها : « أخيرا أحب ان اعترف انني رغم قسوتي فسي النقد مستطبعة ان ابصر نواحي خيرة ، وليس العمل النضالي قبل كل شيء نزهة في ضوء القمر .

ان صاحب النقد يبدو أحيانا وكأنه يقف على سطح اخر . كلا . . أنا راكب فسي القارب ، نفس القارب ، وأستطيع والله ان أكتب في نقد نفسي أكثر من هذه الصفحات التي كتبت ، واحساسى بالتصور يحملني الكثير من وزر الضمير ، ذلك ان بعض الناس ينساقون وراء الانفعالات اذ يختارون هذه الطريق . أما أنا فاخترتها بعقلي ، لا لاغذي في نفسي احساسا بالاهمية في ترؤس فرقة او موقع او قطاع . . ابدا ومن هنا عذابي . انني أشعر بقهر حقيقي حين اجد انني ما ازال أقبض على هواء ، وعلى بعض اخوان أرى ان بعضهم يفضلني في هذا النوع من العمل .

وبعد ، فأنني على ثقة تامة بأن العجز في رؤية الطريق لا يعني مطلقا عدم وجود هذه الطريق . . . لفلسطين طريق لم يعد من طريق غيرها . . . هي طريق الكفاح المسلح ، وآمل ان نعد لمسيرتنا الجديدة ما تستحق من امكانات النجاح دون انفعال وهياج . فلم يعد في قدرة شعبنا ان يتحمل هزيمة اخرى » .

هذه هي سميرة باختصار . . . بكلمات أردتها قليلة حتى لو لم تفها حقها . . فقد كانت رحمها الله تحب الإيجاز ، في كل شيء ، حتى في عمرها .

صدر حديثا

مذكرات طه حسين

أروع ما كتبه الأديب العربي الكبير
عن حياته بين الأزهر وباريس . . .

- الفلسفة المفسدة . . والاكل بالشوكة
- والسكينة !
- استاذ جامعي بخمسة جنيهات !
- قاضي الغرام بين الفتية المصريين !
- الصوت العذب . . .
- حياة جديدة في الحي اللاتيني . . .
- قصة حبي . . .

- على باب الأزهر
- كيف سقطت في امتحان العالمية !
- أثر اختفاء المرأة . . .
- عندما خفق القلب لصوت الأنسة مي . . .
- استاذي يدعو علي بالشقاء !
- كيف تعلمت الفرنسية لاسافر الى باريس

المذكرات التي تنشر لأول مرة في كتاب يصدر عن دار الاداب - بيروت